الغزو العلمي سم في عسل الغزو الثقافي
"علم النفس إنموذجاً"

بقلم: احمد قاسم شاكر العلاق
مركز البحوث النفسية / وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

00964- 7710122232
Alfaidcenter2011@gmail.com
العراق - بغداد - الكرادة

تعد المعارف العلمية من أعظم منجزات التراث الإنساني، وركن اساس في بناء الحضارة الإنسانية، وهدفها الرئيس السمو بالإنسان ورفاهه، وان تبادل المعرفة والعلوم بين الثقافات المختلفة، يسهم برفع المستوى العلمي للمجتمعات، فضلا عن تطور العلوم نفسها، وعلم النفس من هذه العلوم الانسانية المهمة في فهم النفس البشرية، وتفسير سلوك الانسان، والتنبؤ بالسلوك وضبطه، نشأ هذا العلم حاله حال العلوم الانسانية الاخرى في المجتمع الغربي خلال القرنين الماضيين، وتطور على يد مجموعة من المنظرين الغربيين، حتى ظهرت فيه مجموعة من المدارس النظرية أبرزها (التحليل النفسي، والمدرسة السلوكية، ومدرسة السمات، ومدرسة الحاجات، والمدرسة الانسانية).

احتوت الكثير من هذه المدارس على فرضيات مقنعة ومنطقية، وتفسيرات دقيقة للسلوك الانساني، أسهمت بفهم النفس البشرية وعالجت الكثير من المشكلات النفسية التي يعاني منها الانسان المعاصر، لكن بالمقابل تعرضت هذه المدارس للنقد فيما بينها، وحاول العلماء والباحثين تطوير مناهج البحث فيها، لكي يخرجوا بافتراضات وتفسيرات مقبولة علمياً، ولغرض معالجة الانتقادات التي تعرضت لها، ورغم هذا التضاد والتعارض بين مدارس علم النفس ونظرياته، وظهور جيل من الباحثين، لقيادة علم النفس النقدي الذي يقدم العديد من الانتقادات للفرضيات، والنظريات النفسية، ومناهج البحث، وتعميم النتائج، ومشكلة السياقات الثقافية، مازال الكثير من الاكاديميين العراقيين في الجامعات يتعاملون معه كحقائق، وبعضهم يعتقد ان كل ما يكتب باللغة الإنجليزية، وينشر في مجلات اجنبية، هو علم مسلم به، فعلى سبيل المثال عندما يختار طالب الدراسات العليا في تخصص علم النفس، عنواناً للرسالة او الاطروحة التي يروم الكتابة فيها، تطالبه اللجنة العلمية في قسمه باسم المتغير باللغة الإنجليزية، ونظرية حول المتغير ومقياس اجنبي، وهذا التسليم الأعمى بالمصادر الأجنبية على أنها صحيحة دون تمحيص أو نقد يُعدّ خطأ منهجياً قد يؤدي إلى تبنّي معلومات غير دقيقة أو منحازة، فمجرد كون المصدر أجنبياً أو صادراً عن جهة مرموقة لا يعني بالضرورة صحة مضمونه، إذ تتأثر الدراسات والأبحاث بعوامل متعددة مثل التوجهات الفكرية، الأجندات السياسية، والبيئة الثقافية للباحثين، وإن التفكير النقدي والتحليل العلمي الدقيقين هما أدوات أساسية للحفاظ على الموضوعية والتأكد من صحة المعلومات، بدلاً من مجرد التسليم بها لمجرد أنها صادرة عن جهات أجنبية وهذا القبول والانصياع للفكر والثقافة الأجنبية أصبح "كالعسل" نتذوقه بلهفة وشغف!!!

ولو تحدثنا عن علم النفس فمنذ ان دخل عالمنا العربي والإسلامي، لم نجد هنالك اضافة فعلية للعلم او نقد واقعي، رغم المحاولات من هنا وهناك (مثل كتابات الدكتور البستاني والسيدين كمال الحيدري واحمد القبنجي)، إذ إن اغفال السياق الاجتماعي لمجتمعاتنا العربية والاسلامية من قبل المنظرين الغربيين،

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ومحاولة أعمام افتراضاتهم على المجتمع البشري، تجعل الباحث العربي والمسلم في علم النفس، امام تحد حقيقي ومسؤولية اخلاقية تحتمها الامانة العلمية نفسها، لصياغة علم نفس إسلامي، ينظر له وفق ما يحتويه تراثنا الاسلامي من اشارات وقراءات لفهم هذه النفس البشرية وتفسير السلوك البشري في ضوئها، بل وان مسؤولية واضعي المفردات الدراسية في الاقسام التي تدرس علم النفس هو محاولة بلورة هذه المفاهيم، وعرضها كمدرسة من المدارس المفسرة للسلوك الإنساني بأضعف الإيمان، وفسح المجال للتخصص بهذا الفرع، لما تقضيه الحاجة الفعلية، فعلى سبيل المثال في مجال النمو وعلم النفس التربوي، ينظر اغلب المنظرين الغربيين لمجموعة من الأساليب، التي ربطوها بنمو صحي، ورفاه نفسي للشخصية و في الواقع هي اساليب تربوية تعزز الفردية التي تؤمن بها الرأس مالية، وهذا مخالف لهياكل مجتمعاتنا من جهة، اذ ان مجتمعاتنا كما يطلق عليها، هي مجتمعات (ابوية هيكلية) وليست مجتمعات افقية كما يعبرون، ومن جهة أخرى ان الاساليب التربوية التي ورثها اباؤنا عن ابائهم، بالحقيقة لم تجعلنا افرادا نعاني من مشاكل نفسية او اضطرابات في هذا المجتمع كما يدعون، ولو جئنا لتصنيف الاضطرابات، وفق معايير الجمعية النفسية الامريكية، او معايير منظمة الصحة العالمية للاضطرابات النفسية، فان بعض ما يعد اضطرابا في تلك المجتمعات، نجدها حالات سوية في مجتمعنا، بل وقد تلاقي المديح والاستحسان ، اما بشكل عام فان المجتمعات التي يتعرض فيها الفرد لظروف حياتية ضاغطة ومؤلمة اكثر من ستة اشهر، سيعاني مشاكل نفسية قد تصل الى الاضطراب، لكن لو نظرنا بعين الملاحظ المتخصص الى مجتمعاتنا (على سبيل المثال مجتمعات العراق وسوريا ولبنان وفلسطين، وما عانوه لمدة عقود من فقر وحروب وعنف) تجدها مجتمعات اكثر تكيفا لما مرت به وتقبلا، نعم هنالك حالات فردية هنا وهناك، لكن حديثنا بعمومية على هذه المجتمعات فلكل قاعدة اختلاف، قد يكون ما نتعرض له من غزو ثقافي ومعرفي بالوقت نفسه، وتغير بأسلوب الحياة الذي اخذ شيئا فشيئا يقترب من الفردانية يجعل تلك النظريات مستقبلا قابلة للتطبيق، لكن من حقنا ان نعتز بهويتنا وقيمنا وطريقتنا بفهم الحياة والعيش، نحن بحاجة الى التنظير بالبناء الإسلامي للسلوك الإنساني وتقديم دراسات وبحوث ومؤلفات فيه. وفق ما تقدم نجد من الضروري التأسيس إلى:

١- فرع لعلم النفس الاسلامي يعتمد على المفاهيم الاسلامية والتراث الاسلامي في استخراج الفرضيات النفسية والتنظير لها وبحثها بأدوات ومناهج بحث خاصة.

٢- جعل علم النفس النقدي من المفردات العلمية التي تدرس في اقسام علم النفس فهي من جهة تنمي التحليل والنقد والتشكيك لدى الطلبة ومن جهة اخرى لا تجعلهم مجرد اوعية للحفظ وترديد كل ما يسمعون.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة